الأزهر الشريف
في ضوء سيرة أعلامه الأجلاء

٣٠

رؤية فنية تاريخية

الشيخ محمد الأحمدي الظواهري (٢)

بقلم وريشة
د. عبدالله سلامة نصر

وكان الشيخ الأحمدي يحضر ذلك المنتدى، ويستمع إلى ما يلقى فيه، لا سيما من الإمام «محمد عبده» حتى تأثر به، وعقد النية على تبني دعوته في إصلاح الأزهر وإثراء الحركة العلمية، والتعليمية فيه، وذلك إذا سنحت له الفرصة، وقد كان!!

ومن الجدير بالذكر، أن والد الشيخ الظواهري كان زميلا للشيخ «محمد عبده»، ولكن طبيعة كل منهما كانت مخالفة للآخر، فقد كان الشيخ إبراهيم مفرطا في التصوف، وما ينسب إليهم من كرامات، وكان الشيخ «محمد عبده» يؤمن بالعقل المفكر، والأقيسة المنطقية، ويعيب على الصوفية عكوفهم على الأضرحة، وتقديس المشايخ، وهذا طبعا لا يقبله الدين الإسلامي، ولا يقره عقل، وإذا كان الإمام «محمد عبده» لا يخلو من نزعة صوفية روحية يلتزمها في سلوكه وتصرفاته، وينصح طلابه بأن يدرسوا كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي الذي ينقي الدين من تلك الترهلات العقائدية. ولقد تأثر الشيخ «الظواهري» بأبيه وقد سماه «الأحمدي» تيمنا باسم «السيد أحمد البدوي»، ولكنه تأثر بالإمام «محمد عبده» أيضا فكان معجبا بأسلوبه في الكتابة والبحث والتدريس، مؤمنا بأسلوبه الإصلاحي للأزهر، وكان دائم التردد على حلقاته العلمية، في الوقت نفسه كان يتردد على زيارة الأضرحة. وقد كتب ابنه د. فخرالدين الأحمدي الظواهري طائفة كبيرة من ذكريات والده في كتابه «السياسة والأزهر» أورد فيها طائفة من حكايات الشيخ الإمام مع هؤلاء الدراويش، وهذا الكتاب فيه الكثير من مذكرات الشيخ، وهو مطبوع في مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٤٥، والمقام لا يتسع لذكر بعض هذه المذكرات من أرادها فلينظرها.

ومع ذلك فقد كان «الظواهري»، عند سرده لخواطره كان متأثرا بالشيخ «محمد عبده» ويعتبر كل ما يفعله الدراويش وما يقع معهم من أحداث مرجعها الصدفة، وأن الله سبحانه هو العليم بما في الصدور، واهب الخير ومسهل الأمر، وملقي المعرفة، وملهم الصواب، ومن هنا يظهر لنا أن «الشيخ الظواهري» كانت تتنازعه العقلانية متأثرا بالإمام «محمد عبده» ومتأثرا بالعاطفة الوجدانية متأثرا بأبيه وجده.

وأما آراؤه الإصلاحية للأزهر فهي مستقاة من آراء الشيخ «محمد عبده» في التطور والمنهج.

ولهذا كانت صوفيته مغايرة إلى حد كبير لصوفية أبيه، فقد اتخذ من التصوف وسيلة للدعوة إلى الله على بصيرة، ولمقاومة البدع والخرافات، والنواصي بالخير يقول: «لعل قراءتي لكتاب - حكم ابن عطاء السكندري - وهو من أهم كتب التصوف، قد أذكت في نفسي نزعة.. فسرت فيها منذ الطفولة.. هي نزعة التعلق الروحي بالذات «الصمدانية»، ولكن الصوفية التي رغبتها لنفسي في أيام شبابي.. كانت صوفية مغايرة لما اعتاد عليه القوم، وقتئذ، أن يشوهوا بها هذه الناحية العظيمة من التدين. ويقول: لهذا قد وضعت في برنامج حياتي منذ تخرجي أن افتح في الصوفية فتحا جديدا وأنقيها مما علق بها من الخرافات والمشوهات. ولأرفعها إلى ما هي جديرة به من المستوى العالي في التقرب إلى ذات الله.. فاتخذ من ذلك سلما لإرشاد الناس، كما يجب أن يكون الإرشاد مبنيا على الأصول الدينية الصحيحة، وحينئذ أكون قد أرجعت الصوفية إلى العلماء والفقهاء وأرجعتهم للصوفية أيضا».

وأما دراسات الشيخ الظواهري العلمية فلم يلتزم فيها بكتاب معين، ولم يتقيد بحضور درس على شيخ معين إلا الشيخ «محمد عبده» لأنه كان ذا طبيعة نزاعة إلى المعارف والعلوم، بنشدها أنى وجدها، ويواصل «الظواهري» قوله: «ولهذا نرى أن ظهوري في حلقات الدرس في الأزهر لم يكن كظهور باقي الطلبة فلم أشترك مع الطلبة في الحي الأزهري هناك في المأكل والمشرب وباقي اجتماعاتهم، ولهذا أشيع عني الانصراف عن العلم والتعليم، لكني كنت منشغلا بالدروس في المنزل». ويقول: «عندما دخلت امتحان العالمية، ورأتني اللجنة الإمام «محمد عبده» وبدأت إجابة السؤال الذي أنا بصدده ودخلت في جوهر الموضوع مباشرة، وانتهيت من تقرير البحث، وانتظرت.. ولكن الإمام ظل صامتا، فخطر لي معاودة الكلام في نفس البحث بأسلوب آخر، فقلت والحاصل.. فرد علي الإمام لماذا تعيد الكلام؟ لقد تكلمت كلاما طيبا وعالجت البحث علاجا رائعا، والأحسن أن تنتقل إلى بحث آخر، واعطاء اللجنة بداوا المناقشة، وفجأة قال الإمام «محمد عبده»: «إن ترتيبك في أبحاثك وطريقة عرضها طريقة جميلة، وسأتخذ معك طريقا آخر... وأخذ يلقب أوضاع المسائل ويخرج من علم إلى آخر، وقد طالت المناورة بضع ساعات على خلاف المألوف، فطلبت نفسي شربة ماء لشدة ظمأي فعالجت نفسي ثانيا وحياء من اللجنة.. لكني أخيرا طلبت الماء.. فقال الشيخ «محمد عبده»: أنت تستحق «شربات».. لا ماء فقد أحسنت أيما إحسان وأرسل في طلب «سقا» من الخروب فشربت وشربوا، وبعد ذلك قال الإمام لقد فتح الله عليك يا أحمدي، والله إنك لأعلم من أبيك، ولو كان عندي أرقى من الدرجة الأولى لأعطيتك إياها.